أضواء من سورة الصف
الجزء الأول

بقلم
د. محمد صلاح أحمد شداد
أستاذ التفسير المساعد بقسم التفسير
كلية أصول الدين – جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين وارض اللهم عن أصحابه والتابعين لهم بإحسان ومن سار على دربهم إلى يوم الدين. آمين.

وبعدُ:

فكتاب الله تعالى أفضل ما تنفق فيه الأوقات ، وتفنى فيه الأعمار ، لأنه النور المبين، والصراط المستقيم، من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم.

وقد أردت أن أقتبس شيئا من نوره فوجدت في سورة الصف نورا يجذب عيني ، فتوجهت نحوها واقفا – بخشوع- أمامها متلمسا بعض أنوارها ، وكان مما دعاني لهذا الموقف عدة أسباب منها:

١- اسمها فهو اسم جذاب (الصف) وما أحوجنا أن نفهم هذا الاسم ونعمل على تحقيقه.

٢- حال المسلمين وما هم عليه من حال الانقسام والتفرق والضعف ، وفي مثل هذه الحال يجب أن نستمع لنداء ربنا سبحانه ، ونستجيب لدعائه، ويعرف كل واحد منا أنه لبنة في بناء وليس كل واحد منا بناء منفصلا .

٣- رسم السورة للطريق الذي ينبغي أن نسير عليه من مطابقة العمل للقول وتحمل أذى الغير كما فعل موسى عليه السلام ، وأهمية الصفقة مع الله تجارة تنجي بين يديه سبحانه فنفوسنا وأموالنا منه سبحانه وهو أولى بهما منا.

وخطتي في البحث كالتالي:

- مقدمة لبيان الخطة وسبب اختيار السورة الكريمة.
- تمهيد أبين فيه مناسبة السورة لما قبلها، وسبب النزول ، واسم السورة، وزمن النزول، وعدد آياتها وغرض السورة ومقصدها.
- تقسيم السورة إلى مقاطع أبدأ تفسير المقطع من السورة بمعاني المفردات لغويا ثم بيان معنى المفردة في الآية الكريمة .
- ثم فقه الآيات وفيه أعالج القضايا التي تناولها المقطع المراد تفسيره وأذكر أقوال العلماء وأرجح ما أراه راجحا
- ثم أذكر ما يؤخذ من الآية أو الآيات موضع التفسير
- عزو الآيات إلى سورها مع ذكر رقم الآية
- نسبة الأحاديث والآثار إلى مصادرها
- نسبة النقول إلى أصحاب الكتب الأصلية فبركة العلم في نسبته إلى صاحبه.
- ثم ختمت البحث بأهم النتائج ، وذكر المصادر وفهرس عام

وبعد:

فإن أصبت فيما قصدت فمن الله تعالى وحده وله الفضل والحمد في كل الأحوال، وإن كانت الأخرى فمن نفسي والشيطان ، وأسأل الله التوبة النصوح والعمل بكتابه والسير على سنة نبيه صلى الله عليه وسلم آمين

كتبه

د محمد صلاح أحمد شداد

تمهيد

يحسن بي قبل البدء في السورة أن أقدم لها بما جرت عليه عادة علماء التفسير من التقدمة بين يدي السورة بما يكشف عن سبب نزولها واسمها وزمن نزولها وعدد آياتها و علاقتها بما قبلها وغرض السورة ومقصدها وغير ذلك من مقدمات فأقول وبالله التوفيق :

١- زمن نزولها:

أكثر المفسرين[١] على مدنية سورة الصف – أي أنها نزلت بعد الهجرة المباركة– وقيل بمكيتها[٢]

والناظر في السورة الكريمة يرجح مدنيتها وذلك لتحذير السورة من النفاق بالقول لما لا يفعل وكذلك بيان السورة لكيفية القتال على صف واحد، والحث على بيع النفس والمال لله تعالى في مقابل النجاة من العذاب الأليم ولسبب النزول الآتي.

٢- مناسبة النزول[٣] :

أكثر القرآن الكريم نزل لغير مناسبة خاصة أعني حادثة أو سؤال وذلك أن السبب الأول لنزول القرآن هو الهداية والتوجيه والبيان لما يريده الله تعالى وذلك فضل الله وحجته على خلقه ، وبعض الآيات والسور نزل لمناسبة خاصة ومع ذلك فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند جمهور العلماء ومن السور التي ذكر لها مناسبة نزول سورة الصف .

---

(١) راجع القرطبي والسراج المنير وغيرهما في أول تفسير السورة الكريمة.

(٢) تفسير الجلالين والثعلبي عند تفسيرهما للسورة الكريمة.

(٣) الأفضل أن نقول مناسبة النزول لا سبب النزول لعدم توقف نزول القران على السبب، إذ كان لابد أن ينزل وجد السبب أم لا.

قال الترمذي: بسم الله الرحمن الرحيم حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن أخبرنا محمد بن كثير عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن عبد الله بن سلام قال : قعدنا نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا فقلنا لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملناه فأنزل تعالى: ﴿**سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم * يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون**﴾ قال عبد الله بن سلام فقرأها علينا رسول الله ﷺ قال أبو سلمة فقرأها علينا ابن سلام قال يحيى فقرأها علينا أبو سلمه قال ابن كثير فقرأها علينا الأوزاعي قال عبد الله فقرأها علينا ابن كثير[١].

ومناسبة النزول هذه تؤيد مدنية السورة الكريمة.

• • •

(١) سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ باب ومن سورة الصف وقال الألباني صحيح الإسناد

عدد آيات السورة الكريمة:

هي أربع عشرة آية اتفاقاً واتفق على ترك عد قوله تعالى: ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾[١] ، ومائتان وإحدى وعشرون كلمة وتسعمائة حرف[٢].

اسم السورة:

من أسماء السور ما هو توقيفي أي ورد اسمها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنها ما هو توفيقي أي اجتهادي من الصحابة فمن بعدهم ، وسورتنا الكريمة ورد النوعان من الأسماء لها ، ولذلك قال العلماء:

اشتهرت هذه السورة باسم (سورة الصف) وكذلك سميت في عصر الصحابة[٣] سورة الصّف؛ لقوله: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً﴾، وسورة الحَوَارِيّين. لقوله: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ وقيل: تسمّى سورة عيسى.[٤]

ويمكن أن أقول في سبب تسميتها بعيسى عليه السلام : لكثرة ذكره عليه السلام في السورة الكريمة ولأنه حلقة وصل بين أكبر رسالتين فقد جاء مصدقا متمما مذكرا برسالة موسى ﷺ ومبشرا وداعيا إلى رسالة محمد ﷺ .

وأما تسميتها بالحواريين : فالحواريون ، جمع حواري ، وهو النّاصرُ ، وهو مصروفٌ – وإن مائل « مفاعل؛ لأن ياء النسب فيه عارضة، ويُسَمَّى كل من تبع نبياً ونصره : حوارياً؛ تسمية له باسم أولئك؛ تشبيهاً بهم، وقيل : الحواريّ : هو صفوة الرجل وخاصته.[٥]

(١) شرح المخللاتي ٢٥٥/١
(٢) السراج المنير مقدمة تفسير سورة الصف
(٣) التحرير والتنوير مقدمة تفسير الصف
(٤) بصائر ذوي التمييز باب بصيرة في (سبح لله ..الصف) ٣١٨/١
(٥) تفسير اللباب لابن عادل في تفسيره للآية الثالثة والخمسين من سورة آل عمران

والتسمية بالحواريين للحث لأمتنا أن تتشبه بهم في موقفهم مع عيسى عليه السلام حيث نصروه وعزروه والسورة ترسم طريق هذه النصرة من تصديق الفعل للقول والوقوف صفا واحدا في سبيل الله تعالى.

واسم الصف هو الاسم التوقيفي ولذلك فهو الأشهر، وكثير من كتب التفسير لا تذكر غيره ومعناه واضح فالسورة تذكر تواجد المؤمنين صفا واحدا كطريق لمحبة الله تعالى ثم هو السبيل إلى نصرة المؤمنين.

وأول الطريق إلى الصف الواحد والنصر على الأعداء: أن نبيع أنفسنا، وأموالنا لله تعالى صفقة رابحة، وهذه تجارة لن تبور، **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)**[1] **(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)**[2]

والسورة أيضا تذكر نموذجين للصف الواحد ،

الأول : الأنبياء عليهم السلام فهم من لدن آدم إلى محمد عليهم السلام دينهم واحد، ودعوتهم بناء واحد متساوي اللبنات وسورتنا تنص على أن عيسى متمم لمن قبله ومبشر بمن بعده **(وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ)**.

والنموذج الثاني: الحواريون وقفوا صفا واحدا مؤمنين أمام من لم يؤمن، وكانت عاقبة النموذجين –الأنبياء عليهم السلام، والحواريين– النصر والتأييد من

(١) سورة الصف الآيتان :١٠،١١

(٢) سورة التوبة :آية ١١١

رب العالمين وهذا ما ختم الله به سورتنا الكريمة **(فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ)** .

علاقة السورة بما قبلها:

معلوم أن الترتيب المصحفي غير ترتيب النزول ولكل حكمة، فالنزول حسب الحاجة وعلاج قضايا الدين والمجتمع، وترتيب المصحف له حكم كثيرة لكل سورة بعد أخرى حكمة تخصها والآن نتلمس بعض أسرار هذا الترتيب المعجز فنقول:

سورة الصف ترتيبها في المصحف بعد سورة الممتحنة وقبل سورة الجمعة،

وقد قال الرازي: وجه التعلق بما قبلها هو أن في تلك السورة بيان الخروج جهاداً في سبيل الله وابتغاء مرضاته بقوله : **﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سبيلي وابتغاء مرضاتي﴾** [الممتحنة : ١] وفي هذه السورة بيان ما يحمل أهل الإيمان ويحثهم على الجهاد بقوله تعالى :

﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الذين يقاتلون في سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بنيان مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف:٤][1]

والحق أنه عند التأمل ستجد تناسقا في ترتيب هذه السورة الكريمة سواء مع سابقتها أم لاحقتها وذلك أن سورة الصف تبين وجوب الوقوف في وجه الأعداء صفا واحدا متراص الأقدام متعانق القلوب متشابك المصالح متوحد الهم والسورة قبلها أعني (الممتحنة) تذكر موقفا وقع من الصحابي حاطب بن أبي بلتعة ﷺ كاد أن يخرق صف القتال في سبيل الله تعالى والسبب الخوف على الذرية والمال، والإمام البخاري رحمه الله ينقل لنا الواقعة بسنده المتصل عن علي رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه و سلم وأبا مرثد الغنوي والزبير بن العوام

(١) تفسير الرازي في مقدمته لتفسير سورة الصف

وكلنا فارس قال (انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين) . فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله صلى الله عليه و سلم فقلنا الكتاب فقالت ما معنا كتاب فأنخناها فالتمسنا فلم نر كتابا فقلنا ما كذب رسول الله صلى الله عليه و سلم لتخرجن الكتاب أو لنجردنك فلما رأت الجد أهوت إلى حجزتها وهي محتجزة بكساء فأخرجته فانطلقنا بها إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال عمر يا رسول الله قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعني فلأضرب عنقه . فقال النبي صلى الله عليه و سلم (ما حملك على ما صنعت) . قال حاطب والله ما بي أن لا أكون مؤمنا بالله ورسوله صلى الله عليه و سلم أردت أن يكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله . فقال النبي صلى الله عليه و سلم (صدق ولا تقولوا له إلا خيرا) . فقال عمر إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعني فلأضرب عنقه . فقال (أليس من أهل بدر ؟ فقال لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة أو فقد غفرت لكم) . فدمعت عينا عمر وقال الله ورسوله أعلم[١]

وفي السورة التي تليها موقف خارق لصف الصلاة والسبب أيضا الخوف على المال، ومع الإمام البخاري يذكر بسنده عن سالم قال حدثني جابر رضي الله عنه قال: بينما نحن نصلي مع النبي صلى الله عليه و سلم إذ أقبلت من الشام عير تحمل طعاما فالتفتوا إليها حتى ما بقي مع النبي صلى الله عليه و سلم إلا اثنا عشر رجلا، فنزلت ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها﴾[٢]

وسورة الصف بوضعها بين السورتين تبين أن صف القتال في سبيل الله

(١) صحيح البخاري كتاب المغازي باب فضل من شهد بدرا

(٢) صحيح البخاري كتاب البيوع باب قول الله تعالى :وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها

تعالى يتساوى مع الصف للصلاة فهما عبادتان متساويتان، الصلاة تربي النفس وتزكيها بمعرفة الله تعالى وأنه الملك المالك سبحانه والجهاد يعرف الناس بالله الملك المالك ويدعوهم للدخول في جنته ورضوانه، ولذلك فهما متساويان، والسبب الذي يخرم صفهما واحد وهو الحرص على الدنيا،ولذلك نجد رسول اللهﷺ يذكر الصفين معا ويذكر قبول الله تعالى للفعلين فيقول ﷺ: ثلاثة يضحك[١] الله إليهم:القوم إذا اصطفوا للصلاة، والقوم إذا اصطفوا لقتال المشركين، ورجل يقوم إلى الصلاة في جوف الليل[٢]

ما ورد في فضل السورة:

القرآن كله درجة واحدة في الإعجاز والوفاء بالغرض فكله كتاب الله تعالى وكلامه عز وجل ، وأما موضوعاته التي تناولها فليست في درجة واحدة.

فسورتا الإخلاص والمسد في مكانة واحدة من الإعجاز والبلاغة، والتحدي، والوفاء بالغرض، ولكن موضوع سورة الإخلاص من بيان صفة ربنا سبحانه أهم للمكلفين، وأولى من معرفة ذم أحد المشركين ولذلك وردت الآثار بفضيلة سورة الإخلاص.

وهذا ما يقصده علماؤنا عند بيان فضل سورة معينة أو آية ، فهم لا يقصدون التفضيل في أصل القرآنية ، أو الفصاحة والإعجاز وإنما موضوع السورة ، وثمرة السورة أو الآية في واقع المكلفين .

وبعد ذلك أقول في بيان فضل سورتنا الكريمة:

(١) الضحك من الصفات الخبرية وللعلماء قولان مشهوران أحدهما أن لله ضحكا يليق بذاته تعالى ، والثاني: الضحك بمعنى الرضا والقبول قال النووي عن الصفات الخبرية (فِيهَا مَذْهَبَانِ أَحَدهمَا : الْإِيمَان بِهَا مِنْ غَيْر خَوْض فِي مَعْنَاهُ ، مَعَ اِعْتِقَاد أَنَّ اللَّه تَعَالَى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْء وَتَنْزِيهه عَنْ سِمَات الْمَخْلُوقَات . وَالثَّانِي تَأْوِيلهَا بِمَا يَلِيق بِهِ تعالى (شرح النووي على مسلم ٢٩٨/٢ دار إحياء التراث العربي بيروت ط.الثانية ١٣٩٢هـ

(٢) مسند الإمام أحمد حديث رقم ١١٧٧٨

لم أقف على حديث صحيح في فضل سورة الصف خاصة ولكن ذكرت بعض كتب التفسير رواية نبه العلماء على وضعها وعدم صحتها، وهي عن أُبيّ بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الصَّفِّ كَانَ عِيسَى مُسْتَغفِراً لَهُ مَا دَامَ فِي الدُّنْيَا، ويَوْمَ القِيَامَةِ هُوَ رَفِيقه»[١]

وتوجد أيضا رواية في فضل المسبحات، وقد حسنها الإمام الترمذي وهي عن العرباض بن سارية : أن النبيﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد ويقول إن فيهن آية أفضل من ألف آية[٢]

قوله (كان يقرأ المسبحات) بكسر الباء نسبة مجازية وهي السور التي في أوائلها سبحان أو سبح بالماضي أو يسبح أو سبح بالأمر وهي سبعة سبحان الذي أسرى والحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن والأعلى (قبل أن يرقد) أي ينام (يقول) استئناف لبيان الحامل له على قراءة تلك السور كل ليلة قبل أن ينام (إن فيهن) أي في المسبحات (آية) أي عظيمة (خير) أي هي خير (من ألف آية) قيل هي ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن ﴾ وهذا مثل اسم الله الأعظم من بين سائر الأسماء في الفضيلة فعلى هذا فيهن أي في مجموعهن وعن الحافظ بن كثير أنها هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم[٣]

وعدم وجود حديث صحيح خاص بفضل السورة الكريمة لا يقدح فيها بل فضلها موفور بقرآنيتها وكل حرف فيها بحسنة والحسنة بعشر أمثالها ومتعبد بتلاوتها ومتحدى بها وبعد ذلك أمر عظيم وهو موضوعها وما حملته من معاني

(١) راجع تفسير السراج المنير في تفسيره آخر سورة الصف وراجع جمال الدين الزيلعي في تخريجه لأحاديث تفسير الكشاف ٨/٤

(٢) سنن النسائي الكبرى ك فضائل القران باب المسبحات والترمذي ك فضائل القران عن رسول الله ﷺ باب ٢١ وقال حسن غريب

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفوري ١٩٢/٨ ط. دار الكتب العلمية

وتشريعات وتنظيمات والحق يكفيه أنه حق ولا يحتاج إلى انتحال حديث للترغيب فيه، وما يجوز أن نمرر حديثا في الفضائل علم وضعه ولا نتساهل في قبول الضعيف فضلا عن الموضوع كما تساهل أبو عصمة المروزي فوضع في فضائل سور القرآن سورة سورة (قيل لأبي عصمة نوح بن أبى مريم المروزى من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة وليس عند أصحاب عكرمة هذا ! فقال: إني رأيت الناس أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبى حنيفة ومغازي ابن إسحاق فوضعت هذا الحديث حسبة.[١] فكتاب الله غني عن كل ذلك فضلا أنه فتح لباب شر عريض

التفسير التحليلي

الآية الأولى: تعلم أيها الإنسان من المخلوقات حولك

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

براعة استهلال تحمل المخاطبين على الاستجابة لما يأتي بعد ذلك فمن يعظمه ما في السموات وما في الأرض وهو غالب على الأمر حقيق بأن نسمع ونطيع له سبحانه.

لغويات الآية:

التسبيح هو: التنزيه عن الشرك والعجز والنقص وهو تنزيه الله عما لا يليق بجاهه من صفات النقص[٢]

وقال الآلوسي: التسبيح على المشهور تنزيه الله تعالى اعتقادا وقولا وعملا عما لا يليق بجنابه سبحانه من سبح في الأرض والماء إذا ذهب وأبعد فيهما[٣]

(١) الموضوعات لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ٤١/١

(٢) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ط. الأولى ١٤١٢هـ ج١/ص١٢٤

(٣) روح المعاني للآلوسي في تفسيره للآية الأولى من سورة الحديد

وجاء في بعض الفواتح « سبَّح » بلفظ الماضي ، وفي [بعضها] بلفظ المضارع ، وذلك إشارة إلى أن هذه الأشياء مسبحة في كل الأوقات ، لا يختص بوقت دون وقت ، بل هي مسبحة أبداً في الماضي ، وستكون مسبحة أبداً في المستقبل .

قوله : ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ .

« العزيز »: الغالب القادر الذي لا ينازعه شيء، وذلك إشارة إلى كمال القدرة.

« الحكيم »: الذي يفعل أفعاله على وفق الحكمة والصواب.[١]

(ما في): يعتقد الكثيرون أن (ما) تستخدم لغير العاقل فيقولون (ما) لغير العاقل و(من) للعاقل ولكن الحقيقة أن (ما) تستعمل لذات غير العاقل كما في قوله: (يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون) ولصفات العقلاء كما في قوله: (فانكحوا ما طاب لكم من النساء) (ونفس وما سواها) ويؤتى بها في التفخيم والتعظيم في صفات العقلاء، ولذلك قال تعالى (وما خلق الذكر والأنثى) ويعني به ذاته العلية.[٢]

أي: أنهما يتعاقبان فتأتي إحداهما مكان الأخرى مثل قوله تعالى:(﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٣] وقوله تعالى : (فانكحوا ما طاب لكم من النساء) [٤].

قال الآلوسي: وحيث أسند ههنا إلى غير العقلاء أيضاً فإن ما في السماوات والأرض يعم جميع ما فيهما سواء كان مستقراً فيهما أو جزءاً منهما بل المراد بما فيهما الموجودات فيكون أظهر في تناول السماوات والأرض ويتناول

(١) تفسير اللباب في علوم الكتاب في تفسيره للآية الأولى من سورة الحديد

(٢) لمسات بيانية للدكتور فاضل السامرائي باب لمسات في سورة الليل

(٣) سورة النور آية :٤٥

(٤) سورة النساء: ٣

أيضاً الموجودات المجردة عند القائل بها، قال الجمهور : المراد به معنى عام مجازي شامل لما نطق به لسان المقال كتسبيح الملائكة والمؤمنين من الثقلين ، ولسان الحال كتسبيح غيرهم فإن كل فرد من أفراد الموجودات يدل بإمكانه وحدوثه على الصانع القديم الواجب الوجود المتصف بكل كمال المنزه عن كل نقص [١]

فقه الآية:

القضية الأولى: التسبيح المراد في الآية :

يخبر جل شأنه أنه قد سبح له ما في السماوات وما في الأرض والسؤال ما مفهوم هذا التسبيح، وهل هو تسبيح حال أم تسبيح مقال؟

أما العقلاء ممن في السموات والأرض فلهم النوعان تسبيح المقال بذكرهم لله تعالى، وتسبيح الحال بعظم القدرة وإبداع الصنعة (جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاء إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[٢] (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)[٣] (وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ)[٤] (إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ)[٥] فالخلقة على هذه الطريقة العجيبة تدل وجود الله سبحانه وقدرته وحكمته ويعتبر هذا من تسبيح الدلالة على وجوده سبحانه.

وأما غير العقلاء فكل علمائنا متفقون على أن المراد منه تسبيح الدلالة والحال فوجودهم وانتظام أمرهم من أكبر الأدلة على وجود الله تعالى وقدرته وحكمته (وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ

(١) روح المعاني في تفسيره للآية الأولى من سورة الحديد

(٢) سورة فاطر:١

(٣) سورة التين:٤

(٤) سورة الحجر:٢٧

(٥) سورة الأعراف:٢٧

لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠))[١] .

ولكن هل لغير العقلاء تسبيح مقال أم لا؟

بعض العلماء يراه تسبيح حال ودلالة فقط، فوجود المخلوقات وانتظام أمرها وتناسق حالها يدل على الله تعالى .

والبعض الآخر من العلماء يراه تسبيح مقال يتناسب مع كل مخلوق واستدلوا بقوله تعالى (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)[٢]

فلو كان تسبيحهم حال فقط لما قال (وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) لأن تسبيح الحال مفهوم قال صاحب اللباب(قوله تعالى:﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السماوات والأرض﴾. أي: مجّد الله ونزّهه عن السوء . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : صلى لله ما في السموات من خلق من الملائكة والأرض من شيء فيه روح ، أو لا روح فيه . وقيل : هو تسبيح الدلالة. وأنكر الزجّاج هذا وقال : لو كان هذا تسبيح الدلالة، وظهور آثار الصنعة لكانت مفهومة، فلم قال: ﴿ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[٣] وإنما التسبيح مقال ، واستدل بقوله تعالى:﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال يُسَبِّحْنَ﴾[٤] ، ولو كان هذا التسبيح تسبيح دلالة ، فأي تخصيص لداود؟.[٥]

أقول وهذا الرأي أرجحه، فكل مخلوق له إدراك يناسبه ومعرفة لله تليق به ولله

(١) سورة يس:٣٧:٤٠

(٢)سورة الإسراء:٤٤

(٣) سورة الإسراء:٤٤

(٤) سورة الأنبياء:٧

(٥) تفسير اللباب لابن عادل في تفسيره للآية الأولى من سورة الحديد

في كونه من الأسرار ما يذهب العقول ويحير أولي الألباب ومن أكبر الأدلة في نظري توجيه الخطاب الالهي لهذه الموجودات في مثل قوله تعالى(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ [١]، فنداء الله سبحانه للجبال ثم أمرها بترجيع التسبيح مع داود عليه السلام يدل على وجود التسبيح من هذه الموجودات. والله أعلم

القضية الثانية: السور المفتتحة بالتسبيح:

افتتاح السورة بذكر تسبيح الله وتنزيهه مؤذن بأن أهم ما اشتملت عليه إثبات وصف الله بالصفات الجليلة المقتضية أنه منزه عما ضل في شأنه أهل الضلال من وصفه بما لا يليق بجلاله وأول التنزيه هو نفي الشريك له في الإلهية فإن الوحدانية هي أكبر صفة ضل في كنهها المشركون[٢]

وقد افتتح سبحانه سورة بني إسرائيل بلفظ المصدر وهو ﴿سبحان﴾ وفي سور الحديد، والحشر والصف بلفظ الماضي . وفي سورتي الجمعة والتغابن بلفظ المستقبل ، وفي سورة الأعلى بلفظ الأمر استيعاباً للأقسام وذلك دليل على أن التسبيح لله تعالى مستمر دائم في الأوقات كلها من الأزل إلى الأبد[٣]

القضية الثالثة: تكرار (ما) في بعض السور:

في سورة الحديد لم تتكرر (ما) مع الأرض وأما مع سور الحشر والصف والجمعة والتغابن فتكررت (ما) وذلك أن إعادة الموصول لإعادة الجار، وإعادة الجار تفيد تقدير إعادة الفعل وإعادة الفعل تفيد التغاير .

قال أبو السعود: وقد كُرِرَ الموصولُ ههنا لزيادةِ التقريرِ والتنبيهِ على استقلالِ كلَ

(١) سورة سبأ:١٠

(٢) التحرير والتنوير في تفسيره للآية الأولى من سورة الحديد

(٣) النيسابوري سورة الحديد

من الفريقين بالتسبيح[١]

أي أن تسبيح أهل السماوات طريقته غير أهل الأرض وهذا صحيح ، ولذلك تجد تكرار حرف الجر مع الموصول يتبعه كلام على أهل الأرض كما في الحشر ، والصف، والجمعة، والتغابن، وأما الحديد فالكلام بعدها عن صفات الله سبحانه ، والتسبيح لا يختلف بالنسبة لله تعالى لأنه تنزيه له سبحانه بصرف النظر عن المسبحين، وكذلك في أواخر سورة الحشر (هو اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) بدون إعادة الموصول مع حرف الجر لأن السابق حديث عن أسماء الله الحسنى

قال د فاضل السامرائي : توجد ظاهرة في آيات التسبيح في القرآن كله. إذا كرّر (ما) فالكلام بعدها يكون على أهل الأرض. وإذا لم يكرر (ما) فالكلام ليس على أهل الأرض وإنما على شيء آخر. في سورة الحشر(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(١) بتكرار (ما) وجاء بعدها (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ (٢) وهذا في الأرض. وكذلك في سورة الصف (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) وفي سورة الجمعة (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢)) وفي سورة التغابن (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢)).

(١) إرشاد العقل السليم لأبي السعود في تفسيره للآية الأولى من سورة الحشر

بينما في سورة الحديد (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١)). قال تعالى بعدها (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢) هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) وليس الكلام هنا عن أهل الأرض وإنما هو عن الله تعالى. وكذلك في سورة النور (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢)[١]

القضية الرابعة: تعدي التسبيح باللام:

(هذا الفعل عدي باللام تارة كهذه السورة، وأخرى بنفسه كقوله تعالى:(وَسَبِّحُوهُ)[٢]، وأصله التعدي بنفسه،لأن معنى«سبحته»:بعدته عن السوء، فاللام إما أن تكون مزيدة كهي في نصحت لزيد ، ونصحته ، وشكرت له؛ إذ يقال : سبحت الله تعالى، قال: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾[٣] وإما أن تكون للتعليل، أي:أحدث التسبيح لأجل الله تعالى)[٤]

ومعنى زيادة اللام أن الكلام يفيد معنى صحيحا بدونها ولكن ذكرها لإفادة معني جديد يحتاج له السياق وإلا فزيادة اللفظ بدون فائدة لحن في التعبير، والقرءان منزه عن كل لحن.

واللام في العربية تفيد – من بين معانيها- الملك والاختصاص أي أن هذا التسبيح لله تعالى خاص به لا يتعداه لغيره، ولما كانت العبادة متصورة من أهل الأرض لغير الله تعالى حسنت التعدية باللام هنا للتأكيد على اختصاص هذا التسبيح

(١) لمسات بيانية ص:٧٩٥

(٢) سورة الأحزاب:٤٢

(٣) سورة الأعراف : ٢٠٦

(٤) اللباب لابن عادل في تفسيره لأول سورة الحديد

لله تعالى، وأما في قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾[1] فهو إخبار عن الملائكة والتسبيح منهم لا يتصور في حق غير الله تعالى فلم يحتج للام ، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[2] فهو أمر من الله تعالى ، والله لا يأمر بالتسبيح لغيره فلم يحتج للتأكيد . والله أعلم

ما يؤخذ من الآية الكريمة:

١-الكون كله يعلن إذعانه لله رب العالمين فالكل عبد لرب واحد من له إرادة واختيار ومن ليس له ارادة ولا اختيار فغير المؤمن مذعن لله وإرادته سبحانه في ولايته وصورته وهيئته وصحته ومرضه ومماته ثم في بعثه وحسابه ومصيره بعد ذلك .

٢-العاقل من يتناغم مع الكون في تسبيحه ولا يشذ، فالسماوات ومن فيها أعظم خلقا من الناس ومع ذلك تسبح السماوات السبع ومن فيهن، فأولى بالإنسان أن يذعن لرب العالمين .

٣-التسبيح والعبادة لله تعالى تعود بالنفع علينا نحن والله تعالى لا تنفعه طاعة من أطاع ولا تضره معصية من عصى، ولعل هذا هو سر ختم الآية الكريمة بقوله تعالى (وهو العزيز الحكيم) فالعزيز هو الْغَالِبُ الَّذِي لَا يُنَالُ سبحانه، والحكيم اسم يدل على صيغة تعظيم لصاحب الحكمة ، والحكيم في حق الله تعالى بمعنى العليم بالأشياء الذي أوجدها على غاية الإحكام والإتقان والكمال ، وهو الذي يضع الأشياء في مواضعها ، ويعلم خواصها ومنافعها ، وهو الخبير بحقائق الأمور الذي يعلم ما خفي من أنواع العلوم ، أما الحكمة في حق العباد فهي الصواب في القول والعمل بقدر طاقة البشر.

---

(١) سورة الأعراف : ٢٠٦

(٢) سورة الأحزاب:٤٢

مقومات الصف المنتصر

قوله تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (٤)

هذه الآيات تبين أن التسبيح السابق ليس باللسان فقط وإنما بمطابقة الفعل للقول فالسموات والأرض ومن فيهن يسبحون حالا ومقالا وانصياعا لأمر رب العالمين فيجدر بالمؤمنين من الثقلين الطاعة ومطابقة حالهم لأقوالهم .

اللغويات :

لم: مركبة من اللام الجارة. وما الاستفهامية قد حذف ألفها على ما قال النحاة للفرق بين الخبر والاستفهام، وقيل: لكثرة استعمالهما معا فاستحق التخفيف وإثبات الكثرة المذكورة أمر عسير، وقيل: لاعتناقهما في الدلالة على المستفهم عنه، وبين بأن قولك . لم فعلت؟ مثلا المستفهم عنه علة الفعل فهو كالمركب من العلة والفعل والعلة مدلول اللام والفعل مدلول ما لأنها بمعنى أي شيء، والمفيد لذلك المجموع ، وعند عدم الحرف المسؤول عنه الفعل وحده وهو كما ترى، والمعنى لأي شيء تقولون ما لا تفعلونه من الخير والمعروف؟[1]

(كبر) الكَبير في صفة الله تعالى العظيم الجليل، والمُتَكَبِّر الذي تَكَبَّر عن ظلم عباده، والكِبْرِياء: عَظَمَة الله جاءتْ على فِعْلِياء قال ابن الأثير في أسماء الله تعالى المتكبر والكبير أي: العظيم ذو الكبرياء، وقيل: المتعالي عن صفات الخلق، وقيل: المتكبر على عُتاةِ خَلْقه، والتاء فيه للتفرّد والتَّخَصُّصِ لا تاء التَّعاطي والتَّكَلُّف والكِبْرِياء: العَظَمة، والملك وقيل: هي عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود ولا يوصف بها إلا الله تعالى وقد تكرر ذكرهما في الحديث وهما من الكِبْرِ

---

(١) الآلوسي في تفسيره للآية الثانية من سورة الصف

بالكسر وهو العظمة ويقال كَبُرَ بالضم يَكْبُرُ أي عَظُمَ فهو كبير.

ابن سيده: الكِبَرُ نقيض الصِّغَرِ كَبُرَ كِبَراً وكُبْراً فهو كبير وكُبَار وكُبَّار بالتشديد إذا أفرط والأُنثى بالهاء والجمع كِبارٌ وكُبَّارون[١]

(مقت) الميم والقاف والتاء كلمةٌ واحدةٌ تدل على شَناءةٍ وقُبْح. ومَقَته مَقْتاً فهو مَقِيتٌ وممقوت. ونِكاح المَقْت كان في الجاهليّة: أن يتزوّج الرّجُل امرأة أبيه.[٢]

(مرصوص) (رصرص) في المكان ثبت والشيء ضم بعضه إلى بعض وأحكمه (الرصراصة) الأرض الصلبة و حجارة لاصقة بجوانب العين الجارية (رصه) رصا ضم بعضه إلى بعض فهو مرصوص و رصيص و في التنزيل العزيز (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) وأحكمه بالرصاص أو طلاه به (رص) رصصا انضم بعضه إلى بعض و تقارب يقال رصت الأسنان انتظمت و استوت فهو أرص و هي رصاء (ارتصت) الأشياء انضم بعضها إلى بعض (تراصت) الأشياء ارتصت ويقال تراص القوم وتلاصقوا في القتال أو الصلاة[٣]

قال الفراء: مرصوص بالرصاص.وقال المبرد: هو من رصصت البناء إذا لاءمت بينه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة.وقيل: هو من الرصيص وهو انضمام الأسنان بعضها إلى بعض. والتراص التلاصق، ومنه وتراصوا في الصف.[٤]

قلت: فالصف المطلوب مراعى فيه معنيان نأخذهما من لفظ مرصوص .

الأول:التماسك بانضمام بعضه لبعض واختيار لفظ (مرصوص) المشتق من

(١) لسان العرب مادة كبر ١٢٥/٥

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس مادة مقت٣٤١/٥

(٣) المعجم الوسيط باب الراء مادة رصرص

(٤) القرطبي في تفسيره لسورة الصف

الرصاص الذي يمسك باللبنات دال على شدة هذا التماسك،

الثاني:التساوي بين اللبنات وعدم شذوذ بعضها عن هذا التساوي ، وهذان المعنيان يعطيان قوة الصف المطلوب وشدته .

قال صاحب بحر العلوم:(يعني : يصفون بمنزلة الصف في الصلاة وملتزمة بعضهم في بعض ، لا يتأخر أحدهم عن صاحبه بمنزلة البنيان الذي بني بالرصاص)[١]

مناسبة نزول الآيات:

روى الحاكم في المستدرك عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال : قعدنا نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم فقلنا : لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله عملنا فأنزل الله تعالى : ﴿ سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم * يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون * إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ﴾ إلى آخر السورة و قرأها علينا رسول الله صلى الله عليه و سلم [٢]

فقه الآيات

القضية الأولى: مطابقة القول للفعل:

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ إنكار على من يَعد عِدَةً، أو يقول قولا لا يفي به، ولهذا استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقا، سواء ترتب عليه غُرم للموعود أم لا. واحتجوا أيضا من السنة بما ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) بحر العلوم للسمرقندي في تفسيره لسورة الصف

(٢) المستدرك على الصحيحين حديث رقم ٢٨٩٩ وشعب الإيمان للبيهقي الباب السادس والعشرون باب الجهاد

قال: "آية المنافق ثلاث: إذا حَدَّث كذب، وإذا وَعَد أخلف، وإذا اؤتمن خان"[١].

وفي الحديث الآخر في الصحيح: "أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خَصلَة من نفاق حتى يَدَعها"[٢].

وقال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ ؟، قال: في الجهاد[٣]

والآية وإن كانت نازلة في الجهاد إلا أنها تشمله وغيره فاللفظ عام وسبب النزول يدخل دخولا أوليا.

وقال ابن زيد: نزلت في المنافقين[٤]، كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه: إن خرجتم وقاتلتم خرجنا معكم وقاتلنا، فلما خرجوا نكصوا عنه وتخلفوا[٥]

ولا أرجح أن الآية نزلت بسبب المنافقين – والله أعلم – وذلك لألفاظ الآية الكريمة، فالله يناديهم بصفة الإيمان ثم يرغب في تساوي لبنات الصف للجهاد فوجودهم في صفوف القتال دليل إيمانهم ، وأما أفعالهم التي تنقص من كمال إيمانهم فلا تزيل عنهم صفة الإيمان ولا تدخلهم في زمرة المنافقين، وأما وصف النبي صلى الله عليه وسلم (إذا حدث كذب) وجعل صاحب هذا الوصف منافقا فمن باب تعظيم المخالفة وأنها صفة أصيلة في المنافق ومن فعلها فقد تشبه به في أفعاله لا عقيدته.

(١) صحيح البخاري ك الإيمان باب علامة المنافق

(٢) نفس السابق

(٣) تفسير ابن كثير سورة الصف

(٤) لا يعتبر هذا التعبير نصا في السببية لأن السلف قد يعبر عن آية بأنها نزلت في كذا ومقصوده أن معنى الآية يتناولها

(٥) القرطبي في تفسيره سورة الصف

نعم الآية لفظها عام ويشمل كل من يقول قولا ويفعل خلافه ومن هؤلاء المنافقون يدعون الإيمان ويظهرونه قولا ويفعلون فعل الكافرين أقول: نعم عموم لفظ الآية يشملهم وهناك فرق بين أن تكون الآية نازلة تخاطب المنافقين ومن أجلهم وبين أن تجعل الآية نزلت لفريق من المؤمنين ثم عموم لفظها شمل المنافقين باعتبار الاشتراك في نفس الصفة .

قال الشيخ طنطاوي عليه رحمة الله تعالى: (وناداهم بصفة الإيمان الحق، لتحريك حرارة الإيمان فى قلوبهم ، وللتعريض بهم ، إذ من شأن الإيمان الحق أن يحمل المؤمن على أن يكون قوله مطابقا لفعله[١]

وعلى ذلك: فينبغي أن يخاف المؤمنون كثيرا بسبب هذه الآية لأنها تخاطبهم وتحذرهم أن يتكلموا أو يظهروا مظهرا دينيا ثم يخالفون هذا القول ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "من دعا الناس إلى قول أو عمل ولم يعمل هو به لم يزل في ظل سخط الله حتى يكف أو يعمل ما قال، أو دعا إليه"[٢] وقال إبراهيم النخعي: إني لأكره القصص لثلاث آيات قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ .

وقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ .

وقوله إخبارا عن شعيب: ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[٣]

(١) التفسير الوسيط للإمام الأكبر طنطاوي سورة الصف

(٢) أخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٢٧٦/٧) قال الهيثمى : فيه عبد الله بن خراش ، وثقه ابن حبان وقال : يخطئ ، وضعفه الجمهور ، وبقية رجاله ثقات . وأخرجه أبو نعيم فى الحلية (٧/٢). وانظر جمع الجوامع للسيوطي حرف الميم

(٣) ابن كثير في تفسيره للآية ٤٤ من سورة البقرة

ولكنها فرق لها أسماؤها المختلفة وأنصارها المتميزون إما بزي معين أو بشعار معين أو عبارات خاصة بهم يتمايزون لدرجة تحير الشباب المقبل على الالتزام إلى أي فريق ينتمي وإلى أي جانب ينحاز .

أما دول الإسلام فينبغي على حكامها : أن يتحدوا على أساس الإسلام، لأن الإسلام أقوى الروابط وأعلاها، وأغلاها، وهو الذي أعطى العروبة والعربية الاستمرار والبقاء والقوة، والأعداء ينظرون إلينا بهذه العين أننا مسلمون وأسوق هذه الرواية لنعلم من أين نؤتى فإنا لا نؤتى إلا من قبل أنفسنا، فعن معاذ بن جبل أنه وجد النبي صلى الله عليه وسلم فلما قضى صلاته قال معاذ للنبي : لقد صليت صلاة طويلة قال : إني صليت رغبة ورهبة سألت الله ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألته أن لا يهلك أمتي غرقا فأعطانيها وسألته أن لا يظهر عليهم عدوا ليس منهم فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فردها علي)[1]

وروى البخاري بسنده عن جابر رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم ﴾ . قال رسول الله صلى الله عليه و سلم (أعوذ بوجهك) . قال ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ . قال (أعوذ بوجهك) ﴿ أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ . قال رسول الله صلى الله عليه و سلم (هذا أهون أو هذا أيسر)[2]

فمثل هذه الأحاديث جاءت للتحذير من الفتنة التي يمكن أن تقع، وقول النبي صلى الله عليه وسلم عن وقوع التدابر والتخاصم بين المسلمين هذا أهون وأيسر لأن علاجه وتفاديه ممكن والنصوص الشرعية تنادي على المسلمين بالتزام

(١) صحيح ابن خزيمة باب صلاة الترغيب والترهيب رقم ١٢١٨

(٢) صحيح البخاري ك التفسير باب﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم

الوحدة فقال سبحانه ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾

[وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٩)إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ]

فهو أيسر لإمكان تفاديه وهو أيسر لتحذير القرآن والسنة منه فذكره فيهما على وجه التحذير والتخويف لا على وجه التسليم للقدر المحتوم، وليعلموا من أين يأتيهم أعداؤهم يأتونهم من اختلال صفوفهم وعدم التحامها كالبنيان المرصوص .

وأما أصحاب الجماعات والجمعيات فينبغي أن يعلموا:

أن العمل للإسلام يحتاج إلى الوحدة وتكاتف القوى فأعداء الإسلام يحاربون كل ما هو إسلام فلو استطاعوا توحيد الجهد وتجميع الكل تحت راية الإسلام والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ونقل الناس من المخالفة إلى المتابعة باللين والإقناع والسير بالمنهج الوسط لا إفراط ولا تفريط إن استطاعوا ذلك فهو الحق الذي يريده دينكم منكم، وإن أبيتم إلا التحزب ورفع العناوين المختلفة فأدعوكم إلى أمرين أساسيين إن التزمتم بهما فأرجو أن تحققوا للإسلام نصرا وللمسلمين تقدما في القريب العاجل إن شاء الله تعالى:

أولهما: التأكد من سلامة المنهج وأنه على هدي كتاب الله تعالى وسنة رسوله الكريم فهما النبع الصافي بفهم أئمة الأمة .

وسلامة المنهج الركن الأساسي في السير وبدونه يضل الناس ويكون إفسادهم أكثر من إصلاحهم ، وبسوء الفهم خرجت الخوارج، وغيرهم وقاتلت المسلمين وكانت الفتنة.

قال ابن تيميه رحمه الله :الخوارج كانوا من أظهر الناس بدعة وقتالاً للأمة وتكفيراً لها ، ولم يكن في الصحابة من يكفرهم لا علي بن أبي طالب ولا غيره ،

بل حكموا فيهم بحكمهم في المسلمين الظالمين المعتدين [١]

ثانيهما : طريقة معاملة من يرفع نفس المبادئ من الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ولكنه تسمى باسم آخر هل نتعامل معهم كأعداء ضالين مضلين أو نتعامل معهم معاملة الأخوة في الدين اختلفت العناوين واتفقت المضامين اجتهدوا في خدمة الإسلام واتحدوا على رفع رايته والعمل على دعوته واختلفت الاهتمامات والأسلوب والمظاهر نؤمن أن كلا منا على ثغرة تخدم هذا الدين يعدل بعضنا بعضا وندعوا لأنفسنا بظهر الغيب نفعل ذلك إذا كان الهدف الدين لا حظ النفس نؤمن أن هذا الدين كبير واسع يسع المسلمين جميعا طائعهم ومذنبهم متقدمهم ومتأخرهم وأن رحمة الله أوسع من مبادئ هؤلاء وهؤلاء ، أما التعرض للأشخاص والهيئات بالجرح وكشف العورات فهذا لا يخدم هدف قائله إن كان من أصحاب الدعوات الذين ينكرون ذواتهم من أجل الحق والصواب، ولا يجوز أن يحتج البعض على الآخر بمثل قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ [٢]

ولا بقول النبي صلى الله عليه وسلم (افترقت اليهود على احدى أو ثنتين وسبعين فرقة وتفرقت النصارى على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة وتفترق امتى على ثلاث وسبعين فرقة[٣]

لأن هذا الاختلاف في الفهم والاعتقاد ، أما الجماعات والجمعيات العاملة في حقل الدعوة سلما بالحكمة والموعظة الحسنة تختلف في أسلوبها وفي أولوياتها فلا نحتج بالآية على تفسيق وتبديع المسلمين لأنها لا تنطبق عليهم وكذلك الحديث ،وإ

(١) كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ص ٢٠٥ وانظر : الفتاوى (٣/ ٢٨٢) . ومنهاج السنة (٥/ ٢٤٧، ٢٤٨)

(٢) الأنعام ١٥٩

(٣) السنن الكبرى للبيهقي ج ١٠ ص ٣٠٨

ذكر أبو الفرج بن الجوزي في أول كتابه (تلبيس إبليس) هذا الحديث وشرحه بالفرق التي اختلفت في الاعتقاد، فلا يجوز أن ننزله على الاختلاف في الأسلوب والمنهج.

بل لعلمائنا كلام في هذا الحديث –على تفسيره باختلاف العقائد– يفيد بعدم تكفير هذه الفرق وإليك بعض ما يفيد ذلك: قال الإمام ابن تيميه: ومن قال: إن الثنتين وسبعين فرقة كل واحد منهم يكفر كفرًا ينقل عن الملة فقد خالف الكتاب والسنة وإجماع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، بل وإجماع الأئمة الأربعة وغير الأربعة، فليس فيهم من كفر كل واحد من الثنتين وسبعين فرقة، وإنما يكفر بعضهم بعضًا ببعض المقالات)[١]

(قال أبو سليمان) الخطابى رحمه الله: قوله ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة فيه دلالة على أن هذه الفرق كلها غير خارجين من الدين إذ النبي صلى الله عليه وسلم جعلهم كلهم من أمته وفيه إن المتأول لا يخرج من الملة وان اخطأ في تأويله[٢]

إذا كان هذا كلام العلماء في حق من اختلف مع أهل السنة فما بالنا بمن يوافقنا الاعتقاد ويجهد نفسه في خدمة الدين واختلف معنا في الأسلوب.

ولذلك دائما أقول: العلماء لا يضيقون بالمخالف لهم، وقليل العلم أو مبتدؤه لا يكاد يرى إلا نفسه ، فاللهم اجمع كلمتنا ووحد صفنا وانزع الخلاف من قلوبنا اللهم آمين.

* * *

(١) "الفتاوى" (٧/٢١٧-٢١٨) ، وانظر (٧/٤٧٢)

(٢) السنن الكبرى للبيهقي ج ١٠ ص ٣٠٨

موسى عليه السلام وصبره على قومه

قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥)).

هذه الآية عرض لنموذج من البشر لم يقف صفا واحدا خلف نبيهم للجهاد في سبيل الله تعالى وهم قوم موسى عليه السلام فقد آذوه في نفسه وآذوه في رسالته وهذا كله خرق للصف، أو هي كما قال القرطبي (قوله تعالى: (وإذ قال موسى لقومه) لما ذكر أمر الجهاد بين أن موسى وعيسى أمرا بالتوحيد وجاهدا في سبيل الله، وحل العقاب بمن خالفهما، أي واذكر لقومك يا محمد هذه القصة.[١]

لغويات الآية:

تُؤْذُونَنِي: أذى: الأذى ما يصل إلى الحيوان من الضرر إما في نفسه أو جسمه أو تبعاته دنيويا كان أو أخرويا، قال تعالى (لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى)[٢]

قوله تعالى: (فآذوهما)[٣] إشارة إلى الضرب، ونحو ذلك في سورة التوبة: (ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن ..... والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم)[٤] (ولا تكونوا كالذين آذوا موسى)[٥] (وأوذوا حتى أتاهم نصرنا)[٦] وقال: (لم تؤذونني)[٧] وقوله: (يسألونك عن المحيض قل هو أذى)[٨] فسمى ذلك

(١) الجامع لأحكام القرآن سورة الصف
(٢) سورة البقرة ٢٦٤
(٣) سورة النساء:١٦
(٤) سورة التربة:٦١
(٥) سورة الأحزاب:٦٩
(٦) سورة الأنعام: ٣٤
(٧) سورة الصف :٥
(٨) سورة البقرة:٢٢٢

أذى باعتبار الشرع وباعتبار الطب على حسب ما يذكره أصحاب هذه الصناعة.[١]

(فلما زاغوا أزاغ) (زيغ) الزَّيْغُ المَيْلُ زاغَ يَزِيغُ زَيْغاً وزَيَغاناً وزُيُوغاً وزَيْغُوغةً وأَزَغْتُه أنا إزاغةً وهو زائِغٌ من قوم زاغةٍ مالَ وقومٌ زاغةٌ عن الشيء أي زائغون[٢]

زيغ: فالزيغ: الميل عن الاستقامة والتزايغ التمايل ورجل زائغ وقوم زاغة وزائغون وزاغت الشمس وزاغ البصر (وإذ زاغت الأبصار)[٣] يصح أن يكون إشارة إلى ما يداخلهم من الخوف حتى أظلمت أبصارهم ويصح أن يكون إشارة إلى ما قال (يرونهم مثليهم رأى العين)[٤] وقال (ما زاغ البصر وما طغى[٥] – من بعد ما كاد يزيغ [٦]– فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم)[٧] لما فارقوا الاستقامة عاملهم بذلك.[٨]

(الفاسقين) (فسق) الفِسْق العصيان والترك لأمر الله عز وجل والخروج عن طريق الحق فسَق يَفْسِقُ ويَفْسُقُ فِسقاً وفُسوقاً وفَسُقَ الضم عن اللحياني أي فَجَر[٩]

فسق: يقال: فسق فلان أي: خرج عن حجر الشرع وذلك من قولهم فسق الرطب إذا خرج عن قشره وهو أعم من الكفر.والفسق يقع بالقليل من الذنوب وبالكثير لكن تعورف فيما كان كثيرا وأكثر ما يقال الفاسق لمن التزم حكم الشرع

(١) مفردات غريب القرآن للراغب الأصفهاني ك الألف مادة أذى١٥/١
(٢) لسان العرب مادة زيغ
(٣) الأحزاب : ١٠
(٤) آل عمران: ١٣
(٥) النجم: ١٧
(٦) التوبة : ١١٧
(٧) الصف :٥
(٨) مفردات غريب القرآن للأصفهاني: مادة زيغ
(٩) لسان العرب مادة فسق

وأقر به ثم أخل بجميع أحكامه أو ببعضه، وإذا قيل للكافر الأصلي فاسق فلأنه أخل بحكم ما ألزمه العقل واقتضته الفطرة، قال (ففسق عن أمر ربه)[١] (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا)[٢] فقابل به الإيمان، فالفاسق أعم من الكافر والظالم أعم من الفاسق[٣]

فقه الآية الكريمة

القضية الأولى: التعريف بموسى وقومه

موسى عليه السلام هو الكليم صاحب التوراة وكبير أنبياء بني إسرائيل من الله به عليهم فعزوا بعد ذلة.

له – عليه السلام– من المعجزات الكثير، وأكبرها العصا واليد أرسله الله إلى فرعون وملائه ليخرج ببني إسرائيل لتحرير بيت المقدس فأبى فرعون فكانت المساجلة العلنية أنتجت إيمان السحرة كلهم، فغضب فرعون وهددهم بتقطيع الأطراف، والتصليب في جذوع النخل.

وخرج موسى ببني إسرائيل ليلا عند البحر وأتبعهم فرعون ، ونجا الله موسى وأغرق فرعون وقومه .

والآية التي معنا تقصد أذية بني إسرائيل لموسى عليه السلام، فبعد أن نجاهم من استعباد فرعون ورأوا غرقه وهلاكه آذوا موسى فالقوم المخاطبون في الآية هم بنو إسرائيل

القضية الثانية نوع أذى قوم موسى عليه السلام له:

قوله تعالى –يحكي قول موسى– (يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي) عام في الأذية وهذا يدل

(١) الكهف :٥٠

(٢) السجدة: ١٨

(٣) مفردات غريب القرآن للأصفهاني: مادة: فسق

أنهم آذوه عليه السلام بكل أنواع الأذى في دينه ، ونفسه.

ومن نماذج الأذية في الدين طلبهم لعبادة الأصنام فور نجاتهم من فرعون ورؤيتهم غرقه بقدرة الله وحدة على يد موسى رسول الله (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)[١]

ومنها صناعة العجل وعبادته وهمهم أن يقتلوا هارون عليه السلام (وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ[٢]

(وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[٣]

ومنها جبنهم عن القتال وسوء لفظهم في ردهم (قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)[٤]

قال صاحب التحرير: المراد بأذى قوم موسى إياه : عدم توخي طاعته ورضاه فيكون ذلك مشيرا إلى ما حكاه الله عنه من قوله (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين) إلى قوله (قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا

(١) سورة الأعراف:١٣٨

(٢) سورة الأعراف: ١٤٨

(٣) سورة الأعراف: ١٥٠

(٤) سورة المائدة:٢٤

قاعدون)[١]، فإن قولهم ذلك استخفاف يدل لذلك قوله عقبه (قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين)[٢]

وقد يكون وصفهم في هذه الآية بقوله (والله لا يهدي القوم الفاسقين)[٣] ناظرا إلى وصفهم بذلك مرتين في آية سورة العقود في قوله (فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين) وقوله (فلا تأس على القوم الفاسقين)[٤]

وآذوه في نفسه فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن موسى، عليه السلام، كان رجلا حَيِيا سِتِّيرا، لا يُرَى من جلده شَيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يتستر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما برص وإما أُدْرَة[٥] وإما آفة، وإن الله، عز وجل، أراد أن يُبرئه مما قالوا لموسى عليه السلام، فخلا يوما وحده، فخلع ثيابه على حجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حَجَر، ثوبي حَجَر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عُريانا أحسن ما خلق الله، عز وجل، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبَه فلبسه، وطَفِقَ بالحجر ضربًا بعصاه، فوالله إن بالحجر لَنَدَبًا من أثر ضربه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا -قال: فذلك قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها﴾[٦]

---

(١) سورة المائدة:٢٤

(٢) سورة المائدة:٢٦

(٣) سورة الصف: ٤

(٤) سورة المائدة:٢٦ وراجع: التحرير والتنوير سورة الصف

(٥) الأدرة : فتق في إحدى الخصيتين والمصاب بها آدر . المفهم شرح مسلم للإمام أحمد بن عمر القرطبي١٠٢/١٩

(٦) صحيح البخاري ك الأنبياء باب حديث موسى مع الخضر عليهما السلام

وبالجملة فهم أصحاب كل خلق ذميم مع الله تعالى ومع عباده ومع أنبيائه.

قال ابن كثير: في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[١]

ينعت، تبارك وتعالى، بني إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة، والاستكبار على الأنبياء، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم، فذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب -وهو التوراة-فحرفوها وبدلوها، وخالفوا أوامرها وأولوها. [٢]

القضية الثالثة: موقع جملة ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ﴾ ومعناها:

جملة حالية مؤكدة لإنكار الإيذاء ونفى سببه ﴿ وَقَدْ ﴾ لتحقيق العلم لا للتقليل ولا للتقريب لعدم مناسبة ذلك للمقام.

وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار أي والحال أنكم تعلمون علماً قطعياً مستمراً بمشاهدة ما ظهر على يدي من المعجزات الباهرة التي معظمها إهلاك عدوكم وإنجائكم من مملكته (أني رسول الله إليكم) لأرشدكم إلى خيري الدنيا والآخرة ، ومن قضية علمكم بذلك أن تبالغوا في تعظيمي وتسارعوا إلى طاعتي)[٣]

وأحس في لفظ موسى عليه السلام معنى العتاب واللوم فهم يوقنون أنه رسول الله بالآيات الواضحات ومع ذلك يؤذونه، فلا مبرر لهذا الإيذاء إلا سوء طبائعهم، فالسبب داخلي لا خارجي، ولذلك لازمهم وما انفك عنهم مهما تأتهم الآيات.

---

(١) سورة البقرة :٨٧

(٢) ابن كثير سورة البقرة آية :٨٧

(٣) تفسير الآلوسي سورة الصف الآية الخامسة

القضية الرابعة: (الإزاغة جزاء من الله لمن زاغت قلوبهم)

قال ابن كثير: قوله: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أي: فلما عدلوا عن إتباع الحق مع علمهم به، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان، كما قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[1]

وقال ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾[2] ولهذا قال الله تعالى في هذه الآية: ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾[3]

وآيتنا الكريمة أصل في الاستدلال على أن الطبع على القلوب والختم في مثل قوله تعالى (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)[4]

وقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ* وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ [5] إنما كان جزاء يستحقونه ولا يضرهم علم الله المسبق ولا كتابته في اللوح المحفوظ لأنهم لا يعلمونه، ولا أخبروا به ولا طلب منهم، وعلم الله صفة كمال لا تنفك عنه سبحانه ولا يحملهم العلم على فعل ما لا يريدون فلا احتجاج لهم به .

ولذلك قال ابن تيميه رحمه الله(وَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ : تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ عَامَّةَ مَا يَذْكُرُهُ اللَّهُ فِي خَلْقِ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي يَجْعَلُهُ جَزَاءً لِذَلِكَ الْعَمَلِ . كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ فَمَنْ

(١) سورة الأنعام: ١١٠

(٢) سورة النساء: ١١٥

(٣) ابن كثير سورة الصف الآية الخامسة

(٤) سورة البقرة: ٧

(٥) سورة يونس: ٩٦،٩٧

يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ الأنعام: وَقَالَ تَعَالَى ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾

وَهَذَا وَأَمْثَالُهُ : بَذَلُوا فِيهِ أَعْمَالاً عَاقَبَهُمْ بِهَا عَلَى فِعْلِ مَحْظُورٍ وَتَرْكِ مَأْمُورٍ . وَتِلْكَ الأُمُورُ إِنَّمَا كَانَتْ مِنْهُمْ وَخُلِقَتْ فِيهِمْ لِكَوْنِهِمْ لَمْ يَفْعَلُوا مَا خُلِقُوا لَهُ . وَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ حَرَكَةٍ وَإِرَادَةٍ . فَلَمَّا لَمْ يَتَحَرَّكُوا بِالْحَسَنَاتِ : حُرِّكُوا بِالسَّيِّئَاتِ عَدْلاً مِنْ اللَّهِ . حَيْثُ وَضَعَ ذَلِكَ مَوْضِعَهُ فِي مَحَلِّهِ الْقَابِلِ لَهُ - وَهُوَ الْقَلْبُ الَّذِي لَا يَكُونُ إِلَّا عَامِلاً - فَإِذَا لَمْ يَعْمَلْ الْحَسَنَةَ اُسْتُعْمِلَ فِي عَمَلِ السَّيِّئَةِ . كَمَا قِيلَ : نَفْسُك إِنْ لَمْ تَشْغَلْهَا شَغَلَتْك . وَهَذَا الْوَجْهُ - إِذَا حُقِّقَ - يَقْطَعُ مَادَّةَ كَلَامِ الْقَدَرِيَّةِ الْمُكَذِّبَةِ وَالْمُجْبِرَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ : إنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ لَيْسَتْ مَخْلُوقَةً لِلَّهِ . وَيَجْعَلُونَ خَلْقَهَا وَالتَّعْذِيبَ عَلَيْهَا ظُلْمًا . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ : إنَّهُ خَلَقَ كُفْرَ الْكَافِرِينَ وَمَعْصِيَتَهُمْ وَعَاقَبَهُمْ عَلَى ذَلِكَ لَا لِسَبَبٍ وَلَا لِحِكْمَةٍ[1]

القضية الخامسة:(تذييل الآية)

(والله لا يهدي القوم الفاسقين) تذييل يحمل معنى ما سبقه ومؤكد له أي أن زيغ قلوبهم يجعلهم مستحقين وصف الفسق وبذلك يستحقون ألا يهديهم الله وأن يزيغ قلوبهم جزاءا وفاقا

وذلك (كما قال تعالى ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرسول مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهدى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المؤمنين نُوَلِّهِ مَا تولى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾ وقوله سبحانه ﴿ والله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين ﴾ تذييل قصد به التقرير لما قبله ، من أن الزيغ يؤدى إلى عدم الهداية ، وبيان سنة من سنن الله فى خلقه ، وهى أن من استحب العمى على الهدى ، وأصر على ذلك. كانت عاقبته الخسران أي :وقد

(١) مجموع الفتاوى ١٤/٣٣٥ باب هل يعاقب العبد على عدم محض

اقتضت حكمة الله تعالى أن لا يهدى القوم الخارجين عن طريق الحق ، إلى ما يسعدهم فى حياتهم وبعد مماتهم ، لأنهم هم الذين اختاروا طريق الشقاء،وأصروا على سلوكها) [1]

قال ابن عاشور: ﴿وذكر وصف (الفاسقين) جاريا على لفظ (القوم) للإيماء إلى الفسوق الذي دخل في مقومات قوميتهم ﴾ [2]

ما يؤخذ من الآية:

١- رقة قلب أنبياء الله تعالى وشفقتهم على الناس فموسى عليه السلام رغم أذيتهم له يناديهم (يا قوم) فهو منهم به قوامهم وبهم قوامه وهذا من دواعي استجابتهم له.

٢- أذية الناس للداعية ليست سببا في ترك إيصال الخير لهم فرغم أذيتهم لموسى عليه السلام يتابع دعوتهم ولا يترك إرشادهم.

٣- الله يهدي كل الناس ويبين الطريق لكل الخلق فمنهم من يحب الخير ويستجيب له فهؤلاء يزيدهم ربنا هدى ، وآخرون يستحبون العمى على الهدى وهؤلاء يتركهم ربهم وما أرادوا وكل ذلك معلوم مسطور عند رب العالمين

• • •

(١) التفسير الوسيط للشيخ/ سيد طنطاوي سورة الصف

(٢) التحرير والتنوير سورة الصف

خاتمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فبعد هذا الطواف مع سورتنا الكريمة نخلص إلى حقائق ثابتة وكثيرة منها:

١- القرآن الكريم يعرفنا ما لا نعرفه عن الكون، فهو كون مسخر مسبح سائر لأمر ربه (وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ[1]

٢- المجتمع المسلم بعضه ولي بعض يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولكي يؤثر فيمن يأمر وينهى يحسن أن يكون من أول الملتزمين.

٣- الله لا يرضى من المسلمين أقل من الصف المتراص المتساوي الذي لا ينفذ منه عدو ولا يهدمه معتدي.

٤-الأنبياء أطباء أمراض البشر فمهما آذاهم الناس فهم مقيمون معهم لا يتركونهم لأمراضهم تفتك بهم، ويوم أن فعلها يونس عليه السلام كان الحوت ، والسجن مدى الحياة ، لولا أن ماضيه شفع له .

٥- من يكذب الرسل معاند للحق منكر لوجود الشمس في رابعة النهار ولذلك قال موسى (وقد تعلمون أني رسول الله إليكم)

٦- الله يعامل عباده بما يحبون بعد بيان وجه الحق وإقامة الحجة فمن أجاب الهدى زاده هدى وصلاحا ومن يستحب العمى على الهدى يزيغ الله قلبه فهو سبحانه لا يهدي الفاسقين(مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا

(١) سورة يس آيات ٣٧:٤٠

وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩) كُلًّا نُّمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠)[١] .

• • •

(١) سورة الإسراء: آيات :١٨: ٢٠

أهم المراجع

١- القرءان الكريم .

٢- الكتب العلمية:

كتب التفسير

١- تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل و أسرار التأويل) لعبدالله بن عمر البيضاوي .

٢- تفسير الجلالين المؤلف : جلال الدين محمد بن أحمد المحلي،وجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي الناشر : دار الحديث – القاهرة الطبعة الأولى.

٣- تفسير السمرقندي (بحر العلوم) لنصر بن محمد أبو الليث السمرقندي ط دار الكتب العلمية.

٤- تفسير الفخر الرازي المشتهر بـ : التفسير الكبير ومفاتيح الغيب – المؤلف: محمد الرازي فخر الدين – دار الفكر -بيروت – الطبعة الأولى – ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م .

٥- تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير) (ط دار طيبة)١٤٢٠/١٩٩٩

٦- تفسير النيسابوري (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) دار النشر : دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان – ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م

٧- التحرير والتنوير ــ الطبعة التونسية المؤلف : الشيخ محمد الطاهر بن عاشور دار النشر : دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس – ١٩٩٧ م

٨- التفسير الوسيط للقرآن الكريم للشيخ محمد سيد طنطاوي ط. نهضة مصر

٩- الجامع لأحكام القرءان للإمام القرطبي مؤسسة الرسالة – بيروت ، لبنان – الطبعة الأولى – طبعة عام ١٤٢٧هـ ، ٢٠٠٦م

١٠- الدر المنثور في التفسير بالمأثور لعبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي ط دار الفكر - بيروت ، ١٩٩٣

١١-روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني المؤلف : محمود الألوسي أبو الفضل الناشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت

١٢- السراج المنير لمحمد بن أحمد الشربيني ط دار الكتب العلمية ،

كتب علوم القرآن

١- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز :لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي. تحقيق :محمد علي النجار &عبد العليم الطحاوي. دار النشر :المكتبة العلمية. بيروت

٢- لمسات بيانية في نصوص التنزيل للدكتور فاضل صالح السامرائي

٣- المفردات في غريب القرآن للحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني أبو القاسم الناشر : دار العلم الدار الشامية مكان الطبع: دمشق ــ بيروت سنة الطبع : ١٤١٢ هـ

كتب الحديث وشروحه:

١- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي لمحمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري أبو العلا الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت

٢- الجامع الصحيح سنن الترمذي لمحمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي

٣- الجامع الصحيح المختصر لمحمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي الناشر : دار ابن كثير ، اليمامة - بيروت - الطبعة الثالثة ، ١٤٠٧ - ١٩٨٧

٤- السنن الكبرى لأحمد بن الحسين أبو بكر البيهقي ط. دار الكتب العلمية ١٤٢٤، ٢٠٠٣

٥- السنن الكبرى للنسائي :دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى ، ١٤١١ - ١٩٩١

٦- مسند الإمام أحمد بن حنبل للإمام أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني مؤسسة قرطبة - القاهرة

٧- المستدرك على الصحيحين المؤلف : محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى ، ١٤١١ - ١٩٩٠

كتب اللغة

١- لسان العرب محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري دار صادر بيروت ط الأولى

٢- معجم الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري الطبعة الأولى ١٤١٢هـ

٣- معجم مقاييس اللغة المؤلف : أبي الحسين أحمد بن فارِس بن زكَرِيّا المحقق : عبد السَّلام محمد هَارُون الناشر : اتحاد الكتاب العرب الطبعة : ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢م.

٤- المعجم الوسيط المؤلف / إبراهيم مصطفى ــ أحمد الزيات ــ حامد عبد القادر ــ محمد النجار تحقيق / مجمع اللغة العربية عدد الأجزاء /٢.

* * *

الفهرس العام

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١١
تمهيد	١٢
الآية الأولى: تعلم أيها الإنسان من المخلوقات حولك	٢١
فقه الآية	٢٣
مقومات الصف المنتصر	٢٩
فقه الآيات	٣١
موسى عليه السلام وصبره على قومه	٤٢
فقه الآيه	٤٤
ما يؤخذ من الآية	٥٠
خاتمة	٥١
أهم المراجع	٥٣

* * *